الحكومة النبوية

قراءة في كتابي:

١ - تخريج الدلالات السمعية، للخزاعي

٢ - التراتيب الإدارية، للكتاني

أ. عبد المتعال سالم عاشور(*)

(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ٥٠ المائدة

بين إستنكارٍ يُسفه ميل الأهواء التى تريد التفلت من كل شرع ، والتحلل من كل قانون . وبين تقريرٍ لحكم الله فى ضبط الموازين . جاء النص الكريم يلفت الانتباه إلى أن المجد لله فى ولاء العقيدة ، وفى شعائر العبادة ، وفى شئون التعامل بين الناس .

لكنَّ بعض الفلاسفة والمنظرين تداركوا غفلتنا وأيقظوا غفوتنا وأصلحوا خللاً تواطأ عليه علماء الأمة قرونا ودهورًا : «أن نعطى ما لقيصر لقيصر وما لله لله»

وأوهمونا أنَّ هموم الإسلام الحقيقية تسكن دائرة الحيض ، والنفاس ، وتقصير الثياب وإعفاء اللحى ، وضرب الحجاب . وأنه كان هناك قيصرُ الوقت إليه مقاليد السلطة الزمنية فى المدينة المنورة يرجع إليه :

فى قيادة الجيوش ، وتدريب الجنود ، وإعداد السلاح ، وعقد المعاهدات وتبادل الأسرى ، ودفع الفدية ، وتعيين الأمراء والولاة وعاملى الزكاة والخراج . وتحديد الديات والضمانات ، وتنفيذ الأحكام وتوزيع التركات . وإقامة العدل وتعيين القضاة ، وإتخاذ الحرس والمترجمين وإعداد المعلمين والفقهاء والمستشارين .... إلخ .

والسؤال هو : من قيصر السلطة الزمنية إذن؟

تَلَوا باطلا وجَلَوا صارمًا وقالوا صدقنا ، فقلنا : نعم

على كل حال :

هذه رحلة مع شيخين جليلين ، أحاول خلالها التماس الأسس لبنا الحكم النبوى من خلال هذين العملين الجليلين :

(*) أحد رجال التعليم .

١ - كتاب تخريج الدلالات السمعية على ما كان فى عهد رسول الله ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية .

للعلامة أبى الحسن على بن محمد ، المعروف بالخزاعى .

والكتاب نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، لجنة إحياء التراث الإسلامى ١٩٨٠م

٢ - نظام الحكومة النبوية ، المسمى «التراتيب الإدارية»

للعلامة الشيخ أبى الإسعاد عبدالحى بن عبدالكبير الكتانى .

الناشر : دار الكتاب العرب بيروت ، بدون تاريخ .

* * *

إذا كان للحضارة الإسلامية وجهها الأصيل عند المنابع الأولى . ثم وجهها المتدفق الممتد عبر الزمان والمكان تأثيرًا وتأثرًا . فإن مدى هذا البحث المتواضع هو الوقوف عند مرحلة التكوين على تخوم أول عاصمة إسلامية ، وهى «المدينة المنورة» . وأول حاكم فى الإسلام وهو رسول الله ﷺ . نعم «أول حاكم» ، وقد قصدْت إلى هذا الوصف بغير مواربة مطمئنًا إلى صيغته الاشتقاقية فى قوله سبحانه آمرًا له :

﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾(١)

وقوله سبحانه : ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾(٢)

أو في نعى القرآن الكريم على أصحاب الدعاوى العريضة الكاذبة من أهل النفاق :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾(٣)

ومطئنا إلى الوقائع والأحكام والتشريعات فى دنيا الواقع إذا ما طرأت أقضيات ، أو جدّت مشكلات . أو ثارت منازعات . كان التحاكم فيها إلى رسول الله ﷺ ؛ فهو المرجعُ والسلطة والحكَمُ فى شئون الحكْم والقضاء والمعاهدات والحدود والنكاح والمواريث والوصايا والزكاة . ومراسلة الملوك والجهاد . وتنظيم شئون المجتمع واستصلاح الأراضى والاحتكام للشورى . . ممارسة عملية جمعت بين السلطة الزمنية والروحية ، بين الدين والدولة . . . فى تنظيم شئون المدينة . يقول د . حسين مؤنس : «إن الفترة المدنية بالحساب الميلادى أقلُّ من عشر سنوات . . وعشر سنوات فى حساب الأحداث فى تلك العصور فترة قصيرة جدًا . ولكنّ محمدًا ﷺ أكمل فيها رسالته على نحو لا يكاد يُصدق . تمكن من تحويل هذه الجماعة خلال هذه الفترة إلى أمة من الدعاة المتفقهين النابهين ، فى نفس الوقت الذى تحولوا فيه إلى قوة مجاهدة . . . ثم بنى المسجد ، ومهَّد الطرق ، وقسَّم الأراضى ، وأقرَّ الأعراب ، واهتم بالغرس والزرع ، واعتنى بأعمال العمران . وكان يحب البناء المحكم . ولا يميل إلى التأنق فى السكن . وكان يحب العمل ويدعو إليه . وكان ﷺ عظيم الإحساس بالقيمة المعنوية للإنسان . ثم المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار . ثم وضع «دستور المدينة» ، وهو صحيفة المعاهدة التى حددت الحقوق والواجبات . إنها تتضمن كل

---

(١) المائدة : ٤٨ .

(٢) المائدة : ٤٩ .

(٣) النساء : ٦٠ .

ما نتحدث عنه اليوم من حريات والتزامات دستورية ، ثم الغزوات والسرايا . . . إلخ . والمدينة المنورة من صنع محمد ﷺ وثمرة عمله ولذلك سميت بمدينة رسول الله ﷺ . وقبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى كانت الأمة الإسلامية فى جزيرة العرب قد تحولت إلى قاعدة لأكبر قوة معنوية وعسكرية عرفها التاريخ إلي ذلك الحين . فكيف كان من الممكن أن يتم هذا بدون تخطيط دقيق؟! وكيف يقال : إن الحضارة الإسلامية لم تعرف التخطيط إلا فى العصر الحديث؟! . فماذا يكون التخطيط إذا لم يكن تخطيطُ محمد ﷺ هو نموذجَه الأكمل»[١] .

ولا علينا بعد ذلك أن ينفى د . مؤنس عن الرسول ﷺ صفة الحكم أو السياسة أو القيادة العسكرية[٢] . ونسوق إليه تعجبه السابق سائلين : بم تسمى هذه الأعمال والوقائع ، وقد بسطت الحديث عنها فى صفحات عدة من كتابك القيم؟[٣] . . . ونسوق ـ أيضًا ـ كلمته الصادقة : «ولقد كان الله سبحانه وتعالى قادرًا على أن ينصر الدعوة نصرًا مؤزرًا فى الأسابيع الأولى لنزول الوحى ؛ فيؤمن أهل مكة جميعًا ويُقبل العرب جميعا على الدخول فى الإسلام . ولكنّ الله تعالى عهد بالرسالة إلى الرسول ﷺ وتركه يخوض معركته مع البشر بوسائل البشر ؛ لكى يتعلم بعد ذلك المسلمون كيف يخوضون معاركهم . . . إلخ .»[٤] .

نعم ، يخوض معركته مع البشر بوسائل البشر . ويكفى هذا .

ولعلَّ هذه الرؤيا المتأنية الموثقة الناقدة لأحد شيوخ التاريخ فى العصر الحديث . . لعلها ترد هواجس المترددين ، وصائلة الغواة ممن علا طنينهم رفضًا واستدبارًا ، وتصدَّروا الموائد ، وحملوا اللافتات تدليسًا وتلبيسًا من مثل : «أنتم أعلم بأمور دنياكم»[٥] ، كأن من شروط الحاكم أن يكون خبيرًا فى الزراعة ، أو هذه اللافتة المجلوبة بغبارها وعناكبها من وراء البحار قرونًا عددًا : الحكومة الدينية[٦] أو المفاصلة بين الدين والسياسة .

---

(١) د . مؤنس . حسين . دراسات فى السيرة النبوية ص ٤٨ وما بعدها ، الزهراء للإعلام .
(٢) المرجع السابق ٥٧ .
(٣) السابق تحت عنوان الفترة المدنية صن ٤٧ إلى ٦٨ .
(٤) السابق ، ص ٢٩ ، ٣٠ .
(٥) روى مسلم عن أنس أن النبى ﷺ مر بقوم يلقحون . فقال : «لو لم تفعلوا لصلح» قال : فخرج شيصا ، فمرّ بهم فقال : ما لنخلكم؟ قالوا : قلتَ : كذا وكذا ، قال : أنتم أعلمُ بأمر دنياكم» رواه أيضًا ابن ماجه والإمام أحمد فى مسنده ، واللفظ لمسلم ١٨٣٦/٤ . كتاب الفضائل .
(٦) «ثيوقراطيه Theocratic» نظام من نظم الحكم ، ترجع السلطة فيه إلى رجال الدين . وقد قامت حركة أو ثورة إصلاح دينى فى إنجلترا فيما يعرف «بالبروتستانتيه» ضد مفاسد البابوية وتحكّم رجال الدين وضلال الغفران» . «المعجم الفلسفى عن المجمع اللغوى» . . وروِّج تجار الاستيراد لهذه السلعة الغربية بيننا . فلا يعرف الإسلام هذا اللون من الحكم ولم نسمع أن أبا بكر أو عمر أو هارون الرشيد كان رجل دين ، بل إن هذه الوظيفة لا يعرفها الإسلام .

لكن العلماء الثقات المتخصصين فطنوا لهذا الأصل الذى تجلّى عند رسول الله ﷺ فى جمعه بين «النبوة والحكم» ، بين «الرسالة والسلطان» ، حيث انتهت إلى مقامه الكريم شئون القضاء والفتيا وقيادة الجيوش والمعاهدات . . إلخ .

يقول ابن خلدون : «وسياسة الحكم فى الإسلام مرعاها مصالح الكافة فى الدنيا والآخرة ؛ ذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط . فما الدينا إلا بلاغ ومعبر للآخرة . وإنما المقصود دينهم المفضى إلى السعادة فى الآخرة ، فجاءت الشريعة تحملهم على ذلك فى جميع أحوالهم ؛ من عبادة ، ومعاملة ، حتى فى الملك ـ الذى هو طبيعى للاجتماع الإنسانى أجرته على منهاج الدين ليكون الكل محوطا بنظر الشارع الذى هو أعلم بصالح الكافة فيما يغيب عنهم . . وإذا كانت أحكام السياسة فى غير الإسلام قائمة على مصالح الدنيا فقط ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[1] ، فإن مقتضى الشرع فى الإسلام هو حمل الكافة على الأحكام الشرعية فى دنياهم وآخرتهم ، وكان هذا المنصب لأهل الشريعة وهم الأنبياء ، ومن قام مقامهم وهم الخلفاء .

وعلى ذلك فحقيقة منصب الخلافة أنها : نيابة عن صاحب الشرع فى حفظ الدين وسياسة الدنيا»[2] .

ثم عقد لذلك فصلاً فى مقدمته بعنوان : «فصلٌ فى أن العمران البشرى لابد له من سياسة ينتظم بها أمره»[3] ، ونقل فى هذا الفصل رسالة كتبها طاهر بن الحسين[4] لابنه عبدالله بن طاهر[5] حين ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما . فى هذه الرسالة تبيان مفصل لسياسة الحكم من أمتع وأوعب ما كُتب فى هذا الباب ، نموذجًا يحتذيه أرباب السياسة والحكم فى الإسلام .

وقد كان المستشرق الألمانى بروكلمان دقيقًا وهو يتناول المرحلة المدنية عند رسول الله ﷺ ـ إذا تجاوزنا فقدان الذائقة الإيمانية عنده ـ وحديثه عن القرآن الكريم على أنه تلقيات بشرية ، يقول :

---

(١) سورة الروم : ٧ .
(٢) المقدمة لابن خلدون ، ص ١٥٠ .
(٣) ابن خلدون . المقدمة ص ٢٤٠ .
(٤) أبو الطيب طاهر بن الحسين الخزاعى ١٥٩ - ٢٠٧هـ من كبار الوزراء والقواد . وهو الذى وطد الملك للمأمون العباسى . ولد بخراسان وسكن بغداد ـ ولاه المأمون شرطة بغداد ، ثم ولاه خراسان ، الزركلى ـ الأعلام ٣١٨/٣ .
(٥) أبو العباس عبدالله بن طاهر الخزاعى ١٨٢ - ٢٣٠هـ . من أشهر الولاة فى العصر العباسى ؛ ولى إمرة الشام ، ثم مصر ، ثم ولاه المأمون خراسان . فلما ظهرت كفاءته ضم إليه ولايات أخرى . المرجع السابق ٢٢٦/٤ .

«وأما المدينة حيث ترقى النبى ﷺ إلى مرتبة الحكم وزاول عمل المشرع فإن مواعظه وتشريعاته وإن احتفظت بقافية السجع التى كثر مع ذلك عدم إحكام تناولها ، قد تحولت إلى نثر خالص . وإلى جانب ذلك تصدر النظم والترتيبات فى كل نواحى التشريع المتعلق بالعبادات والمعاملات والجنايات كما كانت تتطلبها حاجة الوقت»[1] .

حول هذا الحمى حوَّم الشيخ الجليل أبو الحسن على بن محمد الخزاعى (٧١٠ - ٧٨٩هـ) فى مصنفه :

«تخريج الدلالات السمعية على ما كان فى عهد رسول الله ﷺ من الحرف . والصنائع . والعمالات الشرعية» .

ثم جاء عالم المغرب الإمام المؤرخ الفقيه أبو الإسعاد عبد الحى الكتانى ، فنابع عليه تذييلا وشرحًا وتصحيحًا وتعريفا وتوسعة ونقدًا فى سفره المغرب المعجب :

«التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التى كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية فى المدينة المنورة العلية» .

فالعملان الجليلان يلتفان عند هدف محدد هو :

«النظم والشرائع والسياسات التى كانت على عهد تأسيس أول حكومة إسلامية» .

وكلاهما يواجه طائفتين من دارسى الحضارة الإسلامية :

طائفة أنكرت أن يكون للإسلام حكومة مدنية أساسًا

وأخرى وقفت بحضارة الإسلام وحكومته عند بنى العباس أو بنى أمية ، بعد استعارة ذلك من اليونان والفرس والرومان .

ودراستنا المتواضعة هذه إنما هى إشارة حيية ؛ لعلها تغرى ذوى الفضل من شيوخ العصر تحقيق هذين الكنزين كتاب الخزاعى أخرجه المجلس الأعلى - وسوف نشير إلى ذلك - ولعلها تستلفت الأنظار ؛ وفاءً بحق إمامين جليلين تَحيَّفهما الإهمال وخيم عليهما النسيان .

خطة البحث :

١ - سأحاول تقديم الكتابين شكلا وموضوعًا ، بناءً ومنهجًا .

---

(١) بروكلمان . كارل ، تاريخ الأدب العربى ١٣٨/١ ترجمة د . عبدالحليم النجار ، دار المعارف .

٢ – والتعريف بالشيخين الحافظين ، مع وقفة طويلة مع شيخ المغرب أبى الإسعاد الكتانى ؛ لثراء مادته ، واستيعاب مصنفه ، ونفاذ بصيرته ، ودقة ملاحظته ، وتنوع مصادره وسعة إطلاعه ، واستقصاء بحثه ، ورسوخ قدمه ، ثم هو بعد ذلك أهم رائد لهذه الدراسة ـ كما سنرى ـ والمصدر الوحيد أحيانًا

٣ – مآخذ الكتانى على الخزاعى .

٤ – ملاحظات عابرة على «تراتيب الكتانى» .

أولاً : أبو الحسن الخزاعى وكتابه :

من أبو الحسن هذا ؟

طلبت معرفته فى كتب الرجال والأعلام فلم أظفر بطائل ، ولما رجعت إلى النسخة التى أخرجها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (سوف نتحدث عنها فيما بعد) لم أجد ما يشفى ، وإنما كل ما ذكر هو تسجيل اسمه هكذا : «للعلامة أبى الحسن على بن محمد المعروف بالخزاعى التلمسانى المتوفى سنة ٧٨٩هـ» . على غلاف الكتاب ، وبالداخل لا شىء .

ومع أن الذين تعاطوا التراجم والتعريف بالأعلام قد ذكروا الكثير من معاصريه من علماء القرن الثامن الهجرى ، أو من مواطنيه فى المغرب أو الأندلس . وسواء كانوا نابهين مثل :

١ – ابن نباته : جمال الدين بن محمد ٧٦٨هـ الشاعر الشهير . أو

٢ – ابن منظور : أبو الفضل محمد بن مكرم (٧١١هـ) صاحب لسان العرب . أو

٣ – ابن هشام : جمال الدين عبدالله بن يوسف (٧٦١ هـ) النحوى الشهير . أو

٤ – ابن شاكر الكتبى : صلاح الدين محمد بن شاكر (٧٦٤ هـ) صاحب الوفيات .

أو كانوا خاملين مثل :

١ – أبى الحسن على بن محمد الصغير (٧١٤هـ) من كبار المفتين فى المغرب[1] . أو

---

(١) الأعلام : ١٥٦/٥ .

٢ - ابن الناجى محمد التنوخى (٨٠٠هـ)[١] .

وكلهم معاصر أو مواطن لأبى الحسن الذى غطاه صمت مطبق .

ولكن الذى شفى ، وروى ، وكشف عن السبب ، وأين وَجَد صاحبَه الخزاعى فهو الحافظ المحقق أبو الإقبال الكتانى ؛ ولذلك قلت : إنه سيكون المصدرَ الوحيد أحيانا ، وها هو ذا يقوم بهذه المهمة . فله الفضل فى التعريف بالشيخ الخزاعى وأين عثر عليه ، كما أن له الفضل فى تقديم مصنفه . ولنسمع ما يقوله الشيخ الكتانى فى تقصيه البحث :

«وكنت فيما مضى وانقضى شديد التطلب لهذا الكتاب العظيم الشأن ، الذى اهتم به مؤلفه بما لم يهتم به أحد قبله ولا بعده فيما نعلم وهو : «تدوين المدنية الإسلامية على عهد تأسيسها الأول» ومع ذلك أجد أن طول الزمن أخنى على مؤلِّفه ومؤلَّفه فدُفِنا معًا فى زوايا النسيان ، وألقى عليهما الإهمال بكلكله فى أودية النكران»[٢] . ويأسى الشيخ الكتانى لحال سلفه فيقول : «ومع أنه من تلمسان لم يُترجم له من نبَّه على علماء تلمسان ، ولا كان له ذكر عند من ترجموا لعلماء فاس ، مع أنه فاسى المدفن ، ولا من تخصصوا فى طبقات المالكية مع أنه مالكى المذهب . أهمله صاحب كشف الظنون[٣] . كما أهمله ابن حجر[٤] فى كتابه «أنباء الغمر بحوادث العمر» وهو يترجم لمن مات ٧٨٩هـ (عام وفاة الخزاعى) من الأعيان ولم يذكره السيوطى[٥] مع من ذكرهم»[٦] .

عثر الشيخ الكتانى على صاحبه فى مصادر شبه مجهولة وهى :

١ - درة الحجال ذيل تاريخ بن خلكان ، لأبى العباس ابن القاضى .

٢ - جذوة الاقتباس فى ذكر من حل من الأعلام لمدينة فاس ، لنفس المؤلف

٣ - مستودع العلامة ، لابن الأحمر

---

(١) جرجى زيدان : تاريخ الأدب العربى ٢٢٢/٣ تحقيق د . شوقى ضيف . دار الهلال .
(٢) التراتيب الإدارية . المقدمة ٣٣ .
(٣) كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، معجم فى أسماء المؤلفات العربية لحاجى خليفة مصطفى ، تاريخ الأدب العربى ٢٤٠/٣ .
(٤) شهاب الدين . أبو الفضل أحمد بن على المعروف بابن حجر العسقلانى : أحد كبار الأعلام فى القرن التاسع ٨٥٢هـ جرجى زيدان ١٧٩/٣ .
(٥) كتاب طبقات الحفاظ المبنى على طبقات الذهبى ٧٤٨ . ثم زاد عليه الحافظ المؤرخ الفقيه ابن الكمال ٩١١هـ .
(٦) مقدمة التراتيب ص ٤٠ .

٤ - فهرسة أبى زكريا يحيى بن أحمد السراج الفاسى ٨٠٥هـ (تلميذ الخزاعى)[١] .

والخزاعى (٧١٠ - ٧٨٩هـ) هو :

«أبو الحسن على بن محمد بن أحمد بن موسى بن مسعود الخزاعى نسبًا ، التلمسانى مولدًا ، الفاسى وفاةً ، الأندلسى ثقافة» .

ولد سنة ٧١٠ هـ عشر وسبعمائة بتلمسان لوالد جمع بين السيف والقلم ـ ولُقِّبَ هذا الوالد : «بذى الوزارتين» ـ وكان راسخًا فى العلم والفروسية معًا عالمًا بالفقه واللغة ، لآباء بالأندلس تسنموا مناصب القضاء ، وكانوا أرباب علم وأدب . وهكذا نشأ الخزاعى فى بيئة نابهة علمًا ومنصبًا .

ومن تلامذته : أبو زكريا يحيى بن أحمد السراج الفاسى (٨٠٥ هـ) ، وهو الوحيد الذى روى عنه كتابه ؛ حيث يقول : «سمعت من لفظه بعض تأليفه المسمَّى : تخريج الدلالات السمعية على ما كان فى عهد رسول الله ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية»[٢] .

وصف ابن السراج شيخه : «بالشيخ الجليل الحافظ اللغوى التاريخى المصنف الناظم الناثر . كان مقدمًا فى التاريخ ، كثير الصدقة والإيثار»[٣] .

ومن دلائل نباهة الخزاعى أنه كان من كتاب واحد من ملوك بنى مرين وهو المستعين بالله أبو سالم إبراهيم بن أبى الحسن المرينى ، المقتول سنة ٧٦٢هـ .

العجيب أن صاحب كتاب الأعلام ترجم لكل من : ابن القاضى ، وابن الأحمر ، والسراج تلميذ الخزاعى ـ وهم الذين ذكروه فى مصنفاتهم[٤] ـ وقرأ الهوامش والتعليقات فيها

---

(١) مقدمة التراتيب ص ٣٤ .

(٢) المقدمة ٣٨ .

(٣) المقدمة ٣٥ .

(٤) أ - ابن القاضى : ٩٦٠ - ١٠٢٥هـ : أحمد بن محمد ـ المكناسى الزناتى أبو العباس ابن القاضى . مؤرخ رياضى من أهل مكناس . له نحو خمسة عشر كتابا ، من مؤلفاته : «جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس» ط «درة الحجال فى أسماء الرجال» ط جزءان . «لقط الفرائد» خ ذيل له وفيات ابن قنفذ ـ الأعلام ٢٢٥/١ .

ب - ابن الأحمر : ٨٠٧هـ : إسماعيل بن يوسف الخزرجى أبو الوليد ، المعروف بابن الأحمر . مؤرخ أديب غرناطى الأصل ، من فاس إقامة ووفاة . من كتبه : «حديقة النسرين فى أخبار بنى مرين» خ . الأعلام ٣٢٩/١ .

جـ - السَّرَّاج : ٨٠٥هـ : يحيى بن أحمد بن محمد . . . . أبو زكريا ، المعروف بالسَّرَّاج الأندلسى الفاسى ، عالم بالحديث كان مسند فاس والمغرب فى عصره . له : «فهرسه» خ . قال الكتانى : وقفت على المجلد الأول منها بخط مؤلفها وقال ابن القاضى : قلما تجد كتابًا فى المغرب ليس عليه خطه . انتهت إليه رياسة الحديث وروايته . توفى بفاس . الأعلام ١٦٣/٩ .

ولم يذكر الزركلى فى ترجمته لابن الاحمر كتابًا أشار إليه الكتانى فى المقدمة ، وهو كتاب «مستودع العلامة» الذى ترجم للخزاعى .

ـ وأشار إلى الكتانى عند ترجمة السَّرَّاج ـ ومع ذلك فقد أغفل الحديث عن الشيخين معًا : الخزاعى والكتانى .

تتلمذ الخزاعى على أبى عبدالله محمد بن أحمد بن مرزوق التلمسانى (٧١٠ - ٧٨١هـ) ، وأجازه مع أنه قريب السن والميلاد من الخزاعى . كما أخذ عن المحدّث قاضى الجماعة بالجزيرة ـ أبى البركات محمد بن أبى بكر (٧٧١هـ) .

هو إذن راوية محدَّث ، كاتبٌ فقيهٌ شاعرٌ ، له معرفة بالحساب . ضليع فى العربية ، كان قريبا من آل مرين ولعل إهداءه مصنفه إلى :

«مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله أبى فارس موسى بن مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله أبى عنان فارس» ، لعلَّ فى هذا الإهداء ثم ما أنشده من شعر فى مدحهم ما يشير إلى هذه المنزلة عندهم» .

مصنف الخزاعى : تخريج الدلالات السمعية . .

أولا : لهذا المصنف إخراجان

أما الإخراج الأول ـ تاريخيًا ـ فهو للكتانى ، وسوف يأتى الحديث عنه فيما بعد إن شاء الله .

وأما الإخراج الثانى فهو إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ لجنة إحياء التراث الإسلامى ، طبعة (١٤٠١هـ - ١٩٨٠م) بتحقيق «الشيخ أحمد محمد أبى سلامة» من علماء الأزهر الشريف ، وتقديم أ/ عبدالمنعم محمد عمر ، رئيس لجنة إحياء التراث الإسلامى .

ويشير التقديم (صفحة ونصف) إلى اسم الكتاب ومؤلفه (سطران) ، وأن هذا الكتاب فريد فى بابه وهو موثّق المصادر ، مفسَّر الغريب معزو النقل . . وأن لجنة الإحياء أسندت تحقيق هذا الكتاب إلى الأستاذ الشيخ «محمد أبو سلامة» وقد عَثَر على نسخة منه ، وعرضها على اللجنة فوافقت . لكن الشيخ توفى ـ رحمه الله ـ قبل أن يكتب مقدمة التحقيق ؛ فأسندتها اللجنة إلى أستاذ آخر ثم ثالث لمراجعة التجارب ؛ ثم رابع لإعداد الفهارس . هذا ما ذكره التقديم الموجز .

ومعنى ذلك أنه بوفاة الشيخ المحقق ـ عليه رحمة الله ـ غاب ركنٌ هام من أركان التحقيق يبدأ به أى عمل علمى محقق . وتوضيح ذلك :

أنه قد درج شيوخ التحقيق على منهج علمى ثابت فى إخراج العمل المحقق . «وقد كانت رسالة الإمام الشافعى قريبة من يدى ، وهى بتحقيق الشيخ الإمام أبى الأشبال أحمد محمد شاكر» فوجدت أن النص المحقق تسبقه مقدمة هى عجبٌ من العجب ، وآية فى الدقة والتأنى والبحث ، وسرد خطوات العمل :

- التعريف بشيخ الأئمة أبى عبدالله محمد بن إدريس الشافعى(١٥٠ - ٢٠٥هـ) تعريفًا يليق بالشيخ الإمام رضي الله عنه .
- ثم عرض تاريخى لمؤلَّفه «الرسالة» ، ورحلتها ، ومن تولى شرحها من القدماء .
- ثم نُسخُ الرسالة مخطوطةً ومطبوعةً ـ ونقدُ كل نسخة ، وأن المخطوطة نسختان والمطبوعة ثلاث طبعات .
- رحلة المخطوطتين إلى أن صارت إلى دار الكتب المصرية .
- السماعات على كل نسخة ، وثَبْتٌ بأعلام السماعات .
- اعتماد المحقق على نسخة «الربيع» صاحب الإمام ، ولماذا ترك النسخة الأخرى «نسخة ابن جماعة» .
- وصف نسخة الربيع ؛ ورقًا وخطا وتغليفًا وتاريخًا وأسطرًا ، وصفًا مفصلاً .
- مقابلة المطبوعات الثلاث ، والأخطاء التى اكتشفها بمقابلتها على المخطوط الأصل .

استغرقت المقدمةُ اثنتين وتسعين صفحة إضافة إلى تسع لوحات خطية[1] .

أما نسخةُ «**الإحياء**» فجاءت خاليةً تمامًا من مثل هذه المقدمة الكاشفة ؛ فلم نعرف أى المخطوطات قرأها المحقق ، ولا أين وجد هذه المخطوطة ، وهل هى واحدة أو أكثر ، كما لم نجد أى تعريف بالمؤلف . يقول التقديم : «وعثر المرحوم الأستاذ أبو سلامة على نسخة منه» فأين عثر؟ وما وصفها ، وما تاريخها؟ ولماذا جاء الكتاب بغير تعريف لمؤلفه وشيوخه وعصره؟

أما بعد ذلك فالتحقيق فيه جهد العلماء ؛ ضبط النص ، والتعريف بالأعلام ، وعزو النصوص وردها إلى مصادرها ، واستكمال ما نقص ، واستعادة ما سقط . وهو إذ يستعير يشير إلى بعض النسخ التى بين يديه ؛ مثل ما حدث ص ٣٣٥ حيث أشار فى الهامش بقوله :

---

(١) الرسالة : للإمام أبى عبدالله محمد بن أدريس الشافعى (١٥٠ - ٢٠٤) ، تحقيق شيخ المحققين أحمد محمد شاكر ، عن مكتبة دار التراث ، ط ثانية ١٩٧٩ .

«التكملة عن نسخة تونس» أو فى مقدمة الخزاعى ص ٨ فى الهامش [فى ت مبتدعًا لا متبعًا] أو فى هامش ١٠٨ [فى ت ، ز عن عائشة بن عبدالقارى] . . وهكذا .

هناك إذن نسخ رجع إليها الأستاذ والمحقق رحمه الله . وقد كنا نرجو من شيوخنا الخالفين فى عمله أن يلتمسوا هذه المقدمة الكاشفة .

علي امتداد الصفحات التى جاوزت المئين الثمانية جَهدٌ جاهدٌ تأدى له علماؤنا ؛ بحثا واطلاعًا وتطوافًا بين العشرات من المراجع والمصادر بين المطبوع والمخطوط ـ ينبيك عنه شروحٌ وتعليقاتٌ واستدراكات وتصويبات وعزو ومقابلات ، ثم جريدة الفهارس وأسماء المصنفات على اتساع دائرة الثقافة العربية والإسلامية . جهدٌ يُذْكر فيشكر ؛ فجزاهم الله خيرًا هؤلاء الذين تجردوا لإخراج طبعة المجلس الأعلى من كتاب الشيخ الخزاعى : «تخريج الدلالات السمعية» .

وصف هذه النسخة : (مجلد واحد) .

عدد صفحاتها ٨٨٠ صفحة (ثمانون بعد المائة الثامنة) من القطع الكبير ، وفى النسخة التي أمامى جاءت بعض الصفحات بيضاء .

والكتاب ترتيبه هكذا على التوالى :

١ - مقدمة موجزه من اللجنة .

٢ - مقدمة الخزاعى .

٣ - أبواب الكتاب ، وهو مبنى على عشرة أجزاء ، وتحت كل جزء أبواب مختلفة .

٤ - الفهارس ، وهى خمسة : الأعلام ، الأمكنة ، الطوائف والقبائل والفرق ، المصادر ، الموضوعات .

وحبذا لو كان هناك فهرس سادس للنصوص : (قرآن كريم ، حديث شريف ، شعر)

أما موضوع الكتاب وتفاصيل أجزائه وأبوابه ، فسوف نتحدث عنها مع مصنف الشيخ عبدالحى الكتانى ـ منعًا للتكرار ـ بعد الإشارة إلى حديث الخزاعى عن كتابه ، ثم التعريف بالكتانى أولا ، وثقافته وعصره . وكتابه . وماذا أضاف إلى التخريجات ثانيًا . ومآخذ الكتانى عليه ونقده له ثالثا . وملاحظات أخيرة على عمل الشيخ الكتانى رابعًا .

ثانيا : حديث أبى الحسن الخزاعى عن كتابه ، وتحديد هدفه ، ولمن أهدى كتابه والتعريف بالمصنفات التى اعتمدها :

أ - سبب التأليف :

«فقد شرع رسول الله ﷺ للأمة ولايات وأعمالاً ، وولّى عليها من ارتضاه من الصحابة رضوان الله عليهم أمراء وعمالا ، ليتعاونوا علي البر والتقوى . .»[١] .

تجرد الخزاعى لهذا العمل ـ بعد استخارة الله عز وجل ـ انتصارًا لهذه الفترة ، وتبيانًا للجاهل : يقول الشيخ «فإنى لما رأيت كثيرًا ممن لم ترسخ فى المعارف قدمه ، وليس لديه من أدوات الطالب إلا مداده وقلمه . . . استخرت الله تعالى أن أجمع ما تأدى إلىّ علمُه من تلك العمالات فى كتاب يضم نشرها . . . فألفت هذا الكتاب وسميته :

تخريج الدلالات السمعية . على ما كان فى عهد رسول الله ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية»[٢] .

ب - منهجه ، ومبناه

(١) يقوم الكتاب على مقدمة شارحة ، ثم أجزاء عشرة تضم مائة وسبعين بابا ؛ بها ست وخمسون ومائة خطة من الحرف والصناعات والعمالات . وخلاصة الأجزاء كما يلى :

الأول : فى الخلافة والوزارة وما ينضاف إلى ذلك	وتحته ٧ (سبعة) أبواب
الثانى : فى العمالات الفقهية وأعمال العيادات إلخ .	وتحته ٢٥ (خمسة وعشرون) بابا
الثالث : فى العمالات الكتابية وما ينتسب إليها	وتحته ١٣ (ثلاثة عشر) بابا
الرابع : فى العمالات الأحكامية . .	وتحته ١٧ (سبعة عشر) بابا
الخامس : فى ذكر العمالات الجهادية ، وما يتشعب منها ، وما يتصل بها	وتحته ٤٥ (خمسة وأربعون) بابا
السادس فى العمالات الجبائية	وتحته ١٢ (اثنا عشر) بابا
السابع : فى العمالات الاختزانية	وتحته ١١ (أحد عشر) بابا
الثامن : فى سائر الأعمال	وتحته ١٠ (عشرة) أبواب
التاسع : فى ذكر حرف وصناعات كانت على عهد رسول الله ﷺ ، وذكر من عملها من الصحابة رضوان الله عليهم	وفيه ٣٤ (أربعة وثلاثون) بابا
العاشر : فى ذكر أمور متفرقة مما يرجع إلى معنى الكتاب	وفيه ٤ (أربعة) أبواب[٣]
مجموع أبواب الكتاب	١٧٨ (مائة وثمانية وسبعون) بابا

(١) مقدمة كتاب تخريج الدلالات السمعية للخزاعى ، ص ٧ ، نسخة المجلس الأعلى .
(٢) السابق ، ص ٨ .
(٣) راجع مقدمة الكتاب .

ومنهجهُ فى بناء الأبواب : أن يبدأ بذكر العمالة أو الحرفة ، مستمدًا ذلك من أحد المصادر ، وغالبًا ما يكون الاستيعاب لابن عبدالبر ، ثم يترجم لمن وليها من الصحابة ، وشرح اللغويات ، وذكر الديار والمنازل ، مع ذكر المصادر فى كل ذلك ، وهى مصادر عديدة متنوعة تمثل أوجه الثقافة العربية وأحيانًا يبدأ باللغويات كما حدث فى الباب السابع من الجزء الثالث بعنوان فى الترجمان ص ٢٠٧ ، حيث يضبط لغاته «الترجمان» وفيها ثلاث لغات . . . إلخ ـ ثم ذكر من كان يترجم له باللسان ، وما معنى أن عمر نهى عن رطانة الأعاجم ، ثم تفريعات فقهية على ذلك .

وقد يبدأ بنصوص من القرآن الكريم ، أو بنصوص من السنة .

مثال الأول : الباب الخامس من الجزء الرابع ص ٢٧٩ ، حيث بدأ الباب وهو بعنوان : «فى الشهادة وكتابة الشروط» بدأه بآية الدّيْن من سورة البقرة . وآيات آخر من النساء والطلاق والنور ، وما أثر من ذلك عن رسول الله ﷺ .

ومثال البدء بالسنة : ما جاء فى الباب الرابع من نفس الجزء ص ٢٧٧ بعنوان : «فى قاضى الأنكحة» ، فقد استهلَّ الباب بحديث شريف من الموطأ ، وثناه بحديث شريف من مسلم ، ثم النسائى ، وختم الباب بفائدة لغوية ، ونلاحظ ـ أيضًا ـ أن القائم بهذه العمالة هو رسول الله ﷺ نفسه .

وقد يبدأ بالنص على فضل هذا العمل ، مثل الحديث عن فضل العامل على الصدقة ص ٥٤١ .

كما ترى تختلف البدايات . لكنَّ البناء واحد ، وهو ذكر العمالة والترجمة لصاحبها ، وذكر بعض اللغويات ، وما يتفرع من مسائل فقهيه . ولذلك فقد جمع بين ترجمة الرجال وترجمة الحرف والصناعات .

(٢) من يُمْنِ العلم وبركته أن ينسب كل قول لقائله ، وهذا ما صنعه أبو الحسن الخزاعى في مصنفه ؛ سواء فى باب السير وتراجم الرجال ، أو فى باب اللغويات ، أو نسبة المنازل والديار ، أو فى المسائل الفقهيه . وهو يقول فى مقدمة كتابه حول هذه الجزئية :

«وضمنته فوائد فى شرح جملة من الألفاظ اللغوية الواردة فيها . وضبطتُ ما أشكل منها . وعرفت بالمواضع التى نقلتُ منها جميع ما اشتمل عليه من كتب العلماء رحمهم الله

تعالى ؛ ليقف عليها هنالك من تطمح نفسه لذلك ، فأبرأ من عهدة النقل وأسلم من تبعة النقد»[١] .

ثم أشار إلى تاريخ تعاطيه لهذا العمل الجليل الفريد :

«فمازالت أؤلف وأصنف وأبوب وأرتب وأصحح وأنقح حتى سطح فى رياض الإفادة زهره ، وسطع فى أفق الإجادة بدره . وذلك فى أوائل سنة ست وثمانين وسبعمائة هـ»[٢] ، أى قبل وفاته بثلاث سنوات عليه رحمة الله .

(٣) ثم أهدى الكتاب إلى «أمير المؤمنين المتوكل على الله أبى فارس : موسى بن مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله أبى عنان : فارس بن موالينا الخلفاء الراشدين ، أسود العرين وملوك بنى مرين»[٣] .

(٤) وأما ذكره لمصادره التى اعتمدها والمنشورة خلال سفره الضخم ـ فقد أفرد لها فهرسة فى الجزء العاشر . وهنا ملاحظة ـ أشير إليها سريعًا ـ هى التى جعلتنى آسى على إهمال التعريف بالنسخ المعتمدة فى إخراج المجلس الأعلى للكتاب . وتوضيح ذلك : أن الشيخ الكتانى ـ كما سنذكر بالتفصيل ـ حدَّد النسخ التى رجع إليها ، وقد سقط منها الجزء العاشر ، بينما نسخة المجلس جاءت كاملة بما فيها الجزء العاشر ، فلو كان قد أشير إلى مخطوطات الكتاب لأمكنت المقابلة بينهما . . وسوف نرى جهد الشيخ الكتانى ونقداته الصائبة فيما بعد وبحثه الدءوب عن نسخ الكتاب ، وذلك حين نأتى إلى الحديث عن كتاب «التراتيب» إن شاء الله .

(٥) وأخيرًا فهذه لفتات عابرة لقراءة أولى متعجلة وسريعة :

(أ) كان جل اعتماد أبى الحسن الخزاعى فى ترجمة الرجال هو كتاب «الاستيعاب فى معرفة الأصحاب» لأبى عمر يوسف بن عبدالله ، المشهور بابن عبدالبر ـ كما أشار بحق أبى الإسعاد الكتانى ـ وربما رجع إلى آخرين ذاكرًا أن الترجمة لم يذكرها الاستيعاب :

ففى ترجمة مخيربق (٥٦٧) قال : ولم يذكره أبو عمر فى الاستيعاب ، وكذلك فى ترجمة رملة بنت الحارث النجارية . قال : رحلة بنت الحارث هذه لم يذكرها أبو عمر . وهو هنا يدل على أنه دقيق فى متابعته . وكذلك فى ترجمة الحصين بن نمير ص (٢٨٣) أغفله

---

(١) المقدمة ، ص ٨ .
(٢) السابق ، ص ٩ .
(٣) السابق نفسه .

الاستيعاب . لكنه لم يكن دقيقا وهو يترجم لـ رفيدة الأسلمية (ص ٦٧٤ الباب الخامس من الجزء الثامن حيث يقول : «تنبيه : لم يذكر أبو عمر بن عبدالبر ـ رحمه الله تعالى ـ رفيدة هذه فى كتاب الاستيعاب» . قلت : عفا الله عنا وعنك يا شيخنا ، بل ذكرها . واسمع ما قال الإمام الحافظ أبو عمر :

«رفيدة : امرأة من أسلم ، كان رسول الله ﷺ قد جعل سعد بن معاذ فى خيمتها فى مسجده ؛ ليعوده من قريب . وكانت امرأة تداوى الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين ، ذكره ابن إسحاق»[1] وهو نفس مساق الكتاب عن ابن اسحق .

(ب) فى هذا الباب (الخامس) بعنوان : «فى المارستان» بعد أن عرَّف أبو الحسن «المارستان» عن الجوهرى فى صحاحه وأنه دار المرضى ـ ذكر حديث مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : «أصيب سعد يوم الخندق ؛ رماه رجل من قريش : ابن العرقة رماه فى الأكحل . فضرب عليه رسول الله ﷺ خيمة فى المسجد يعوده من قريب» .

قال المحقق فى الهامش : لم أعثر عليه فى مسلم ، ورواه البخارى فى كتاب الصلاة ، باب الخيمة فى المسجد . راجع الهامش ص ٦٧٣ من الكتاب .

قلت : غفر الله لنا ولك ، بل ذكره مسلم يا سيدى وإليك البيان :

عن عائشة رضى الله عنها : أصيب سعد يوم الخندق . . .» بقية النص بالضبط فى صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير ، باب جواز قتال من نقض العهد وجواز إنزال أهل الحصن على حكم حاكم عدلٍ أهلٍ للحكم جـ ٣ ص ١٣٨٩[2] .

وعند البخارى فى كتاب فتح البارى ٤٦٣/١ كتاب الصلاة ـ كما أشار الهامش ـ وفى المغازى ـ أيضًا ـ ٣١٧/٧ باب غزوة الخندق[3] .

ويمكن أن يقال لأبى الحسن ما قاله الإمام الكتانى : «إن الحديث الشريف إذا جاء فى صحيح البخارى قُدِّم على غيره من الصحاح» .

---

(١) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبدالبر . جـ ٤ ص ٣٨٣٨ قسم النساء ترجمة رقم ٣٣٤٠ . نهضة مصر .
(٢) صحيح مسلم : تحقيق الشيخ محمد فؤاد عبدالباقى ، دار إحياء الكتب العربية ط ١٩٥٥ .
(٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى : صنعة الإمام الحافظ شهاب الدين ابن حجر» دار المعرفة ـ بيروت ، أوفست عن الأميرية ١٣٠٠هـ .

(جـ) عنوان الكتاب حدَّد المدى الزمنى للعمالات وهو عصر النبوة (على ما كان فى عهد رسول الله ﷺ) من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية . لكن شيخنا الخزاعى رضي الله عنه لم يلتزم بهذا «العهد النبوى» .

فقد يستطرد فى ذكر الولاة أو العمالة ليصل بها إلى الخلفاء الراشدين ، كما حدث فى الحجاب ص ٥١ ، والدواوين ص ٢٣٥ .

وقد لا يكون لها ذكر تمامًا فى العهد النبوى ، مثل صاحب المظالم ص ٢٧٥ حيث ذكر السبب فى استحداث هذه الولاية نقلا عن أبى بكر بن العربى ، وأن أول من وليها هو عبدالملك بن مروان ، ومثل حديثه عن صانع السفن ص ٤٨٠ وذكر بسنده أنه نوح عليه السلام ، وأشار إلى استخدام السفن فى العصر النبوى ، وفرق بين الصناعة والاستخدام .

وكذلك حديثه عن صاحب المساحة ، بدأ بذكر عمر رضي الله عنه .

ومثل حديثه عن صاحب السكة ، بدأها بقوله : هذه عمالة لم تكن على عهد رسول الله ﷺ (ص ٦٣١ الباب السابع من الجزء السابع) . فلماذا ذكرتها إذن؟

وكذلك القول فى الدلال والسمسار (ص ٧١٨ الباب العاشر من الجزء التاسع) لم يُسم أحدًا وإنما اكتفى بالتعريف والحكم .

وبعد ؛ فهذا العمل الفريد العلم لا تقلل من قيمته هذه الهنات المتواضعة ، فرضى الله عن صاحبه ، وجزاه خير الجزاء .

والآن إلى متابعة الإمام الحافظ أبى الإسعاد الشيخ عبدالحى الكتانى . المسمى بـ : «كتاب التراتيب الإدارية ، والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التى كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية فى المدينة المنورة العلية» .

ولضبط دراسة هذا المصنف ينبغى تحديد الخطوات كالآتى :

- التعريف بالشيخ أبى الإسعاد عبدالحى الكتانى وبيئته العلمية ومعاصريه .
- مصادر ثقافته ، ومنها رحلاته وأسفاره ، وتجاهل المترجمين له .
- ملابسات أحاطت بتأليف مصنفه .
- إلقاء الضوء على كتابه ؛ هدفًا ومبنى وموضوعًا ومصادر .
- نقده للشيوخ الذين قرأ لهم ، أولهم الخزاعى .

● ملاحظات عابرة بعد أن نشير إلى الملامح الرئيسية فى إنشاء أول عاصمة إسلامية على يد مؤسسها ﷺ

مَن عبدالحى الكتانى؟

هو الإمام الحافظ الفقيه المحدِّث المتصوف أبو الإسعاد الشيخ عبدالحى بن شمس الآفاقة أبى المكارم مولانا عبدالكبير بن أبى المفاخر سيدى محمد الحسنى الإدريسى .

وهذا اسمه ولقبه بحُلاه التى وردت على غلاف مصنفه : «كتاب التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية ، التى كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية فى المدينة المنورة العلية» . والشيخ الحافظ من علماء القرن الرابع عشر الهجرى ، فاسى المولد والوفاة .

تبحّرٌ واسع اطلاع مديد مع غزارة علم وقوة تمكن ، إمام فى السير والتراجم . بصير بما يقرأ تلحظ عنده فهمًا معرفيا لايشيع وعينا ناقدة قلَّ أن تخطئ وبصيرة ثاقبة لا غيل . هذا الإمام العلم الأُمَّة بكل هذا القدر ، سكتت عنه كتب التراجم والأعلام وكأنها تواطأت على غمطه فصدق عليه ما قاله هو عن الشيخ أبى الحسن الخزاعى :

«ومع ذلك أجد أن طول الزمن أفنى على مؤلِّفه ومؤلَّفه معًا فدُفِنَا فى زوايا النسيان وألقى عليهما الإهمال بكلكله فى أودية النكران» .

إلا أن الشيخ الكتانى ما يزال قريب العهد موصول الأثر بالعصر يَحْتَفى فى ديوانه الأغر بالكثير من معاصريه وقد أضفى عليهم صفات الصحبة والصداقة والوداد :

وهذه كوكبة ممن أشار إليهم أسوقها تأكيدًا لنشاطه العلمى وأنه لم يكن خاملاً وتأكيدًا لاحتفائه وتقديره للعلماء وأخيرًا لتحديد الفترة الزمنية من خلال معاصريه . هذا وقد ذُكر الكثير لكنى اكتفيت بهذه النماذج :

١ - ولصديقنا الكاتب المعتبر رفيق بك العظم (١٢٨٤ - ١٣٤٣هـ/ ١٨٦٧ - ١٩٢٥م) كتابه أشهر مشاهير الإسلام[٢] .

---

(١) التراتيب الإدارية ، المقدمة ، ٣٣ .

(٢) التراتيب الإدارية ، المقدمة ، ٢٦ ؛ الأعلام للزركلى ٥٦/٣ .

٢ - ولصاحبنا البحاثة الأثرى السيد حسن حسنى عبدالوهاب (١٣٠٠ - ١٣٨٩هـ / ١٨٨٤ - ١٩٦٨م) كتاب سماه : دليل الباحثين عمن ألف من الإفريقيين أخبرنى أنه فى ثلاث مجلدات[١] .

٣ - كما بلغنى عن عصرينا المعتنى البحاثة الشيخ جميل العظم البيروتى أنه ذيَّل كشف الظنون فى عشر مجلدات (١٢٩٠ - ١٣٥٢هـ/ ١٨٧٣ - ١٩٣٣م)[٢] .

٤ - للكاتب البارع البحث محمد فريد وجدى[٥] فى ميدان استنباط العلوم النفسية والقوانين الاجتماعية والعلوم الكونية من القرآن وجواهره (١٢٩٥ - ١٣٥٢هـ/ ١٨٧٨ - ١٩٥٤م) ومن مؤلفاته :

تفسيره ، دائرة معارفه ، كنز العلوم واللغة ، الإسلام والمدنية[٣] .

٥ - ويعجبنى أن أثبت هنا قول عصرينا الشاعر المصرى المشهور مصطفى صادق الرافعى (١٢٩٧ - ١٣٥٦هـ / ١٨٨١ - ١٩٣٧م) ثم ساق أبياتا من الشعر[٤] .

٦ - وممن ساعدنى علي استعارته ـ استعارة كتاب التخريجات للخزاعى ـ بهجة تلك الحاضرة التى هو فيها الشامة النادرة الشيخ محمد طاهر عاشور قاضيها لذلك العصر (٠٠٠ - ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٨م)[٥] .

هؤلاء السادة النُجُب معاصرو الشيخ ذكرهم أصحاب السير وأهملوا الحديث عنه ، ولم أجد من أشار إليه وإلى مؤلفه إلا د . حسين مؤنس فى لمحة عابرة : «ملاحظة : أشار إليه أيضًا محدث العصر الشيخ الألبانى فى مصنفه سلسلة الأحاديث الضعيفة» .

يقول د . مؤنس : «وإذا قرأت كتاب «وفاء الوفا» للسمهودى[٦] وكتاب «التراتيب الإدارية» لعبد الحى الكتانى خرجْتَ بمعلومات تدعو إلى العجب عن بعد نظر الرسول ﷺ وصدق تصوره لعانى التعمير والإنشاء القائمة على التخطيط»[٧] .

---

(١) التراتيب ٢٦/٢ ؛ المجمعيون ص ١٠٦ وكان عضوًا بالمجمع اللغوى .
(٢) التراتيب ٤٥٩/٢ ؛ الأعلام ١٣٤/٢ .
(٣) التراتيب ٤٦٣/٢ ؛ الأعلام ٢٢٠/٧ .
(٤) التراتيب ٥٥/١ ؛ الأعلام ١٣٧/٨ .
(٥) التراتيب ؛ المقدمة ٣٣ ؛ الأعلام ٤٣/٧ .
(٦) السمهودى : أبو الحسن على بن عبدالله بن أحمد الحسنى ، أحد مؤرخى مصر فى القرن العاشر الميلادى .
(٧) د . مؤنس ، دراسات فى السيرة النبوية . ص ٥١ . الزهراء للإعلام العربى ط ثانية ١٩٨٥ .

وكما تحدث عن معاصريه من العلماء والأدباء ممن رحل إليهم وانتفع بعلمهم وقرأ لهم نجد أنه تحدث أيضًا عن نفر من أسرته كان لهم خط وافر من العلم والثقافة وهذا بُعْد آخر يلقى الضوء على شخصية الشيخ عبدالحى وهو أنه نشأ فى بيئة علمية ، ولنلتقط هذه الإشارات من سفره الطيب منوهًا عن هذا العالم أو ذاك من الأسرة الكتانية .

١ - وأول من يتحدث عنهم بإجلال وإكبار هو والده ربانى الأمة وشيخ المشايخ مولانا عبدالكبير الكتانى كما عرَّف به غلاف الكتاب .

(أ) فيبدأ بإهداء «هذا الديوان إلى روح شيخنا الأستاذ الوالد» إهداء الكتاب .

(ب) ثم يذكر بعض مؤلفاته والده التى كانت أحد روافده فيقول :

«وتحديد الأسنة فى الذب عن السنة» لشيخنا وولى نعمتنا الأستاذ الوالد الشيخ أبى المكارم عبدالكبير بن محمد الكتانى الحسنى .

(جـ) «والتوفيق من الرب القريب فى عدد شيب وخضاب النبى الحبيب[١] . وفى حديثه عن الخِمرة ، أفرد شيخنا الوالد مسألة صلاته ﷺ على الخمرة والحصير بتأليف فانظره»[٢] .

(د) وعند سؤال الشيخ عبدالحى : «هل كان ﷺ يستعمل الماء المسخَّن أو دخل الحمام؟ قال : وجدت بخط شيخنا الأستاذ الوالد على الفتح» فى باب وضوء الرجل مع امرأته لدى قوله البخارى وتوضأ عمر بالحميم[٣] مانصّه ذكر أبو عمر بن عبدالبر أنه ﷺ لم يستخدم الماء المسخَّن لا فى وضوء ولا غسل»[٤] .

(هـ) ولما تحدث عن «درة عمر» قال الشيخ عبدالحى :

«ولم أر من حرَّر فيها القول كشيخنا الأستاذ الوالد فى كتابه المسمى :

«التوفيق من الرب القريب فى عدد شيب وخضاب الحبيب»[٥] .

---

(١) التراتيب ، المقدمة ، ص ٣١ .
(٢) التراتيب ١٨/١ .
(٣) كتاب الوضوء باب وضوء الرجل مع امرأته وفضل وضوء المرأة» الحافظ شهاب الدين ابن حجر العسقلانى ، فتح البارى شرح صحيح البخارى ٢٥٨/١ والحميم : الماء المسخن .
(٤) التراتيب ٩٤/١ .
(٥) التراتيب ٢٨٨/١ .

(و) وعند حديثه عما يتعاطاه «أهل الطريق» من تمايل يمينا وشمالا فيما يزعمونه من ذكر قال : «فقد خرَّج أبو نعيم فى الحلية عن الفضيل بن عياض : كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا ذكروا الله تمايلوا يمينا وشمالا كما تتمايل الشجرة بالريح العاصف إلى أمام ثم ترجع إلى وراء ، انظر تأليف «الرقص» لشيخنا الأستاذ الوالد . وهو مطبوع»[1] وهناك إشارات أخرى عملية تدل على تغلغل الروح الدينى والتربية الخلفية فى هذا البيت الكتانى ربما عرضنا لها .

هذا وقد ترجم صاحب الأعلام لهذا الوالد فقال :

عبدالكبير بن محمد بن عبدالكبير الحسنى الإدريسى الكتانى (١٢٦٨ - ١٣٣٣هـ/ ١٨٥٢ - ١٩١٥م) فقيه من أعيان فاس مولدًا ووفاة (وهو والد)

وهو والد صاحب «فهرس الفهارس» من كتبه : ـ مبرد الصوارم والأسنة فى الذب عن السنة ـ الانتصار لآل البيت المختار . الشرب النفيس فى ترجمة مولانا إدريس بن إدريس[2] .

٢ - الشخصية الثانية فى الأسرة جَدُّه من قبل الأم :

ففى تقصيه عن ضرب الدراهم وتاريخ السكة فى المغرب جاء قوله :

لأن الإمام إدريس بن إدريس رضى الله عنهما قد كان ضرب السكة أيام خلافته آخر القرن الثانى من الهجرة قبل ولاية عبدالرحمن بن الحكم ، وقد عقد لذلك جدنا من قبل الأم الإمام أحمد بن عبدالحى الحلبى ثم الفاسى فصلاً فى كتابه : «الدر النفيس» وهو الفصل ٢٤ قال عنها : . . . إلخ»[3] .

٣ - جد جده من قبل الأم

عن العلاقة بين الكتاب والسنة وأن السنة بينت القرآن وأن الحديث الصحيح يتطلب لفظه أو بعضه أو معناه فى القرآن ورد ما يأتى : وفى «نفحة المسك الدارى» لجد جدنا من قبل الأم أبى الفيض بن الحاج على فى نظمه لمقدمة ابن حجر[4] . . . إلخ .

---

(١) التراتيب ٢/١٤٤ .
(٢) الأعلام ٤/١٧٥ .
(٣) التراتيب ١/٤٢٣ .
(٤) التراتيب ٢/٢٠٠ .

ثم نابع عن الشخصية الرابعة .

٤ – وفى «رياض الورد» لولده (ولد جد الجد هذا) خاتمه المحققين المطلعين بفاس أبى عبدالله محمد الطالب بن حمدون بن الحاج الذى ألفه[١] فى ترجمة والده المذكور .

٥ – ابن خاله : جاء ذكره وهو يبسط مصادره ومراجعه فى المقدمة قال «وسلوة الأنفاس فيمن أقبر من العلماء «والصالحين بمدينة فاس لابن خالنا : أبى عبدالله محمد بن جعفر الكتانى الفاسى»[٢] .

ثم أشار إلى ابن خاله هذا عند الحديث عن الترجمان حيث قال :

وراجع تأليف ابن خالنا العلامة المحدث أبى عبدالله بن جعفر الكتان نزيل دمشق المسمى بالمطالب العزيزة الوافية فى تكلمه ﷺ لغير اللغة العربية»[٣] وقد ترجم الزركلى لهذا العالم (١٢٧٤ – ١٣٤٥هـ/ ١٨٥٧ – ١٩٢٧م) وذكر من كتبه «سلوة الأنفاس السابق[٤] .

٦ – ثم عدَّ خاله العلامة جعفر بن إدريس ذاكرًا بعض مؤلفاته :

«إتحاف نجباء العصر بالجواب عن المسائل العشر»[٥] ، وآخر عند حديثه «عن الوزان» ٣٥/٢[٦] وثالثًا عند الحديث عن الغناء[٧] ، كذلك ترجم له عند صاحب الأعلام (١٢٥٠ – ١٣٢٣هـ/ ١٨٣٤ – ١٩٠٥م)[٨] .

٧ – وأخيرًا ابن عمه أشار إليه مرتين والتأليف واحد هو : «هداية الضال من القيل والقال» وهو شرح ابن عمنا المؤرخ المدرس الأديب أبى محمد المأمون بن عمر الكتانى على قول ابن فارس :

إذا كنت فى حاجة مرسلاً رسولا وأنت بها مغرم»[٩] .

أردت بهذا السرد تحقيق علمية البيئة بالأدلة والأسانيد ، وهو عنصر هام فى تكوين شخصية الشيخ ، وهناك معلم آخر يوطد هذا البعد ويعمقه فلقد أتيح للشيخ أن ينشأ وطوع يده فرائد المصنفات ، وعجائب المؤلفات ، وغرائب الآثار تضمها خزانة كتبه التى فيها من

---

(١) التراتيب ٢/٢٠٠ .
(٢) التراتيب ، المقدمة ، ٢٧ .
(٣) التراتيب ١/٢٠٨ .
(٤) الأعلام ٦/٣٠٠ .
(٥) التراتيب ١/٢٠٨
(٦) السابق ٢/٣٥ .
(٧) التراتيب ٢/١٣٤ .
(٨) الأعلام ١/١١٥ .
(٩) التراتيب ٢/٢٥ ، المقدمة ٣٠ .

النادر والطريف ما بين مطبوع ، ومخطوط ، وما بين عملات نادره ومكاييل وموازين أثرية أشار إلى بعضها الشيخ عبدالحى :

ـ فى مكتبنا المُدَّ النبوى المرينى ، ودرهم ليوسف بن تاشفين[١] .

ـ ونسخة من موطأ مالك منتسخ على الرق (طرف من الموطأ) يرجع إلى ٥٣٠هـ .

ـ ونسخة من اختصار الموطأ انتسخت بفاس ٥٨٨هـ [٢] .

وفى مكتبتنا ربعة مصحف انتسخها بيده السلطان أبو زيان سنة ٨٠١هـ[٣] .

تتداول الصحف التونسية ومجلاتها صورة مكتوب يذكرون عنه مأخوذ بالفوتوغراف من أصل كتاب النبى ﷺ إلى المقوقس ملك مصر ـ الموجود بدار الآثار بالآستانة ، وكنت قد ظفرت بنسخة منه سابقا فى رحلتى إلى مصر سنة ١٣٢٣ ولعلى أول من أدخلته للمغرب»[٤] .

وفى مكتبتنا رسالة للسيوطى سماها «المهذب فيما وقعه فى القرآن من المعرب» فى نحو كراسة»[٥] .

وفى مكتبتنا فى قسم النقود دراهم مكتوبة بالكوفى عليها لا إله إلا الله محمد رسول الله وأنها لعلى بن أبى طالب[٦] وفى مكتبتنا كتاب نادر الوجود اسمه : «الدوحة المشتبكة فى ضوابط دار السكة»[٧] .

وفى مكتبتنا نسخة خطية من «إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد»[٨] .

«وكتاب الدر الثمين فى أسماء المصنفين ، وهو عندى فى مجلد ـ ومؤلفه الإمام البارع تاج الدين أبو طالب على بن أنجب بن عثمان المعروف بابن الساعاتى البغدادى المتوفى سنة ٦٧٤هـ ، وكتابه هذا من الضنائن التي تفردت بها مكتبتنا»[٩] .

ومن العوامل التى تعاونت على تأسيس شخصيته :

---

(١) المُدّ النبوى المرينى نسبة إلى بنى مرين ١١٩٥ - ١٤٧٠ أسرة حكمت المغرب الأقصى ، وهى الدولة التى أعطت للمغرب الأقصى شكله الذى استقر عليه ، وبلغت فاس فى عهدهم درجة كبيرة من الحضارة . برز منهم أبو يوسف يعقوب بن عبدالحق «المنصور المرينى ١٢١٠ - ١٢٨٦م» . الموسوعة الثقافية ـ دار الشعب .

(٢) التراتيب ١/١٠ .

(٣) السابق ١/١١ .

(٤) السابق ١/١٩٦ .

(٥) التراتيب ١/٢٠٨ .

(٦) التراتيب ١/٤٢٢ .

(٧) السابق ١/٤٢٤ .

(٨) السابق ٢/١٨٨ .

(٩) التراتيب ٢/٤٥٨ .

رحلاته وأسفاره التى جاب فيها كثيرًا من الدول وزار فيها الكثير من الخزائن والمكتبات وانتفع فيها بالتلقى عن شيوخ العصر :

١ - رحلته إلى مصر سنة ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م ، وزيارة المكتبة الخديوية والتي يصفها بقوله ـ أثناء حديثه عن المكتبات التي زارها : «يجب القول اليوم بأن أعظم مكتبة إسلامية فى الكرة الأرضية« المكتبة الخديوية المصرية» فإنها جمعت ما لم تجمعه الآن مكتبة فى العالم الإسلامى . وبرنامجها فى عشر مجلدات ولعله أضيف إليها بعد طبعه ما يقرب مما كان فيها وقت جمعه . وأقدم ما بها من الكتب رسالة الشافعى بخط تلميذه الربيع الجيزى . . . إلخ»[١] . ثم تحدث عن بقية المكتبات ، «تليها مكتبة الآستانة» . ثم تحدث عن المكتبات الخاصة مثل تيمور باشا ، وأحمد زكى باشا . . . إلخ .

٢ - رحلته الحجازية الشامية وزار خلالها دمشق وانظر قوله : «وكنت رأيت فى دمشق صورة يدوية للشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى . وولى الدين ابن خلدون والأخيرة ظفرتُ بها وهى عندى منقولة عن صورة وُجدتْ بالاسكوريال من بلاد أسبانيا»[٢] ، أو يقول : «وأخبرنى مسند الشام عبدالله بن درويش السكرى الدمشقى شفاها عام ١٣٢٤»[٣] . وبيروت . يقول : «وأنشدنى بوصيرى العصر : أبو المحاسن يوسف بن إسماعيل النبهانى البيروتى لنفسه ببيروت سنة ١٣٢٤هـ . ثم سجل أبياتا من الشعر»[٤] .

والخليل : «وممن لقيته منهم أى من ذرية تميم الدارى ـ ببلد الخليل لمازرته سنة ١٣٢٤هـ فى رحلتنا الحجازية الشامية : خطيب الحرم الخليلى»[٥] .

والمدينة المنورة : «ووقفت فى المدينة المنورة على رسالة حافلة للعلامة المحقق محمد بن عبد الرسول فى إثبات الكتابة والقراءة لرسول الله ﷺ ولم يتيسر لى تلخيصها»[٦] . أو «روايتنا عن محدث المدينة المنورة العالم اللغوى الأديب المسند المعمر الرحالة أبى اليسر فالح بن محمد الشاهرى المدنى . م سنة ١٣٢٨هـ فيما أجازنيه مكاتبة ثم شفاها بها ـ بالمدينة المنورة ـ سنة ١٣٢٤»[٧] . وآخر المحطات فى رحلته الشامية الحجازية هى :

---

(١) التراتيب ٢/٤٦٠ .
(٢) السابق ٢/٧٢ .
(٣) السابق ٢/١٣٨ .
(٤) السابق ١/٣٦ .
(٥) التراتيب ١/١٥٤ .
(٦) السابق ١/١٧١ .
(٧) التراتيب ، المقدمة ٤٩ .

مكة المكرمة : «وهو كتاب جيد كنت شديد البحث عن ترجمة مؤلفه ـ (هو كتاب بعنوان : الأدعية والأذكار المتكررة فى الأحوال والأعصار) حتى أفادنيها بمكة زينتها ومسندها وبركتها شيخنا أبو على حسين بن محمد وأن اسم مؤلفه محمد بن عبدالرحمن . . إلخ .»[١] .

٣ - رحلته إلى الجزائر يتحدث عن بعض الكتب فيقول : «وقفت عليه فى زاوية الهامل ببوسعاده بصحراء الجزائر»[٢] .

٤ - رحلته إلى تطوان : فى حديثه عن أحد المصنَّفات يقول الشيخ :

«حتى أنى اجتمعتُ فى رحلتى إلى تطوان فى سنتنا هذه ربيع الأول سنة ١٣٣١هـ/ ١٩٢٣م تقريبا بنائب أسبانيا فى تلك المقاطعة ، فسألته عن هذا الكتاب فلم أجد عنده له أثرًا»[٣] وفى موطن آخر : «وقد كنت رأيت فى سفرى إلى تطوان عام ١٣٤١هـ درهما من هذه الدراهم الهرقلية منقوش عليها صورة هرقل»[٤] .

٥ - وهناك إشارة إلى زيارته لأسبانيا : يتحدث عن موسوعة الفارابى أبى نصر ٣٣٩ محمد بن طرخان ٣٣٩هـ «إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها فيقول الشيخ الكتانى وهو كتاب نادر الوجود توجد منه الآن نسخة خطية فى أسبانيا[٥] .

٦ - والآستانة : فى كلامه عن موسوعة النويرى شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب ٧٣٢هـ نهاية الأرب . يقول : «وهو موجود كاملاً فى بعض مكاتب الآستانة والمكتبة الخديوية بمصر ، وقد شرع فى طبعه الآن بمصر»[٦] .

٧ - وزيارته «لمراكش ١٣٣١ - ١٩١٣»[٧] .

٨ - «رحلته إلى تونس سنة ١٣٣٩هـ الموافق ١٩٢١ تقريبا»[٨] .

٩ - وزيارته للمكتبة الخالدية ببيت المقدس[٩] .

---

(١) التراتيب ١٤/٢ .
(٢) التراتيب ١٦/٢ .
(٣) السابق ١٦٢/١ .
(٤) السابق ٤١٦/١ .
(٥) السابق ١٨٥/١ .
(٦) التراتيب ١٨٨/٢ .
(٧) السابق ١٩٣/٢ .
(٨) التراتيب ، المقدمة ٣٣ .
(٩) التراتيب ٤٥٩/٢ .

منهل آخر فى ثقافة الشيخ وهو صلته بالمثقفين الغربيين (المستشرقين) جاء ذكر بعضهم فى كتابه ولم نستطع تحقيق هذا الجانب نظرًا لتشابه الأسماء عند بعضهم دون أن يحدد تاريخًا أو مؤلفًا محددًا لهم فمثلا : «وإن تعجب فاعجب لقول «بطلر» أحد المشتغلين بتاريخ الإسلام من الأوروبيين»[١] .

حاولت البحث عن «بتلر» هذا واصفًا فى حسبانى إبدال التاء طاء . فوجدت أن الاسم مشترك وأن المهمة عسيرة . ولذلك سأكتفى بالإشارة إلى الواضح مثل :

● انظر رد «رنان»[٢] على نشر الهذيان»[٣] .

● «ولننقل لك بحثا للمؤرخ سيديليو[٤] فى كتابه خلاصة تاريخ العرب الذى ترجمته دار المعارف المصرية وطبعته ١٣٠٩هـ»[٥] .

● عن قصائد المصنفات العربية التى جاوزت القصيدة منها مائة ألف بيت يقول الشيخ : «كل واحدة من هذه القصائد كيفما ظننا فلا تكون إلا أكثر من عدد أبيات الإلياذة[٦] التى عدد أبياتها زهاء ١٦ ألف بيت»[٧] .

هكذات تعددت مناهل الشيخ الثقافية بين المطبوع والمخطوط والرحلات والأسفار والتلقى عن الشيوخ وقراءة : المستشرقين [٨] .

وهو شيخ من شيوخ الصوفية كابرًا عن كابر فوالده كما جاء فى ترجمة الزركلى له : فقيه من أعيان فاس» وأخوه محمد بن عبدالكبير مؤسس الطريقة الكتانية[٩] .

---

(١) التراتيب ٢٨١/١ .

(٢) رينان ، أرنست ٢٨٢٣ - ١٢٨٩٢م . الفيلسوف . من أشهر المستشرقين الفرنسيين ، انتخب عضوا بالمجمع اللغوى الفرنسى ١٨٧٨ تضلع من اللغات الشرقية حتى صار من ثقاتها ، رحل إلى المشرق ونزل لبنان ، عنى بالعقائد الإسلامية ، من آثاره : ابن رشد والرشديين ١٨٥٢ ، تاريخ اللغات السامية (١٨٥٣ راجع نجيب العقيقى ، المستشرق جـ ١ ص ١٩١ دار المعارف ط رابعة ، وأما نشر الهذيان فهو كتاب رد به مؤلفه على جرجى زيدان .

(٣) التراتيب ٤١٩/١ .

(٤) سديليو . لويس الابن خدم هو وأبوه «عمانويل» ، اللغة العربية . ولويس هذا ألف كتابا ، تاريخ العرب وآدابهم فى مجلدين (باريس ١٨٧٧) نقله إلى العربية على باشا مبارك وطبع بمصر ١٣٠٩هـ لويس توفى سنة ١٨٧٥» زيدان تاريخ آداب اللغة العربية تحقيق د شوقى ضيف ٤٨/٤ دار الهلال .

(٥) التراتيب ٤٦٥/٢ .

(٦) الألياذة : إحدى ملحمتى الشاعر اليونانى القديم هو مبروسى وموضوعها الحرب بين طراوده واليونان ، وقد ترجمت إلى العربية» الموسوعة الثقافية بإشراف د . حسين سعيد كتاب الشعب عن مؤسسة فرانكلين .

(٧) التراتيب ١٨٤/٢ .

(٨) استدرك الأعلام فى ترجمة محمد عبدالكبير الكتانى : ويزاد فى ترجمته : وهو مؤسس الطريقة الكتانية بالمغرب ، ويزاد فى أيسماء كتبه : لسان الحجة البرهانية فى الذب عن شعائر الطريقة الأحمدية الكتانية .

(٩) الأعلام ٨٢/٧ والاستدراك عليه ٢٠٧/١٠ .

وتروج فى كتاباتهم مصطلحات القوم ، كما جاء فى تقريظ جريدة النجاح التي تصدر بقسنطينه بتاريخ ١٤ جمادى ٢ هكذا ـ عام ١٣٤٧ ما صورته :

«نظام الحكومة المحمدية»

تأليف العلامة المحقق المحدث الحجة الشيخ عبدالحى الكتانى . المدرس بكلية القرويين وشيخ الطريقة الكتانية بفاس»[١] .

وقبل الانتقال إلى مصنفه «التراتيب» فإن هناك لبْسًا صادفنى يحتاج إلى توضيح عند ترجمة الأعلام لوالده وستذكر الأسماء بدون ألقاب أو كنىً قال : عبدالكبير بن محمد بن عبدالكبير الحسنى الإدريسى الكتانى[٢] .

قال وهو والد : صاحب فهرس الفهارس .

وعند ترجمته محمد بن عبدالكبير بن محمد[٣] . .

قال وهو شقيق محمد عبدالحى صاحب «فهرس الفهارس» .

من محمد عبدالحى هذا؟ وكيف يكون شقيقه؟ وكلاهما محمد والوالد مختلف محمد عبدالكبير شقيق محمد عبدالحى كيف هذا ؟ ومما دعَّم الالتباس ما جاء فى خاتمه الختام بالنص :

«حرره بيده الفقير محمد عبدالحى الكتانى فى شوال الأبرك عام ١٣٤١ بفاس قلتُ : لعله ابنُ المؤلف عبدالحى فإذا بالتكملة تقول :

ثم أعدتُ النظر فيه والالتفات إليه مشتغلا به نجو سنتين أو أكثر فتم تنقيحًا وتهذيبًا وإلحاقًا وتبويبًا عام ١٣٤٦ بفاس حرسها الله بمنه ، مطالعًا عليه مراجعًا لأجله ما سبقت تسميته فى المقدمة من الكتب والرسائل ، ، وزدت على ذلك أخيرًا ما لم يقع لنا فيما سبق تسميته كالزرقانى على الموطأ . . . إلخ . وأخذ فى سرد مؤلفات أخرى»[٤] .

فليس فى النص ما يشير إلى أنه ابن الشيخ وإنما هو الشيخ نفسه» . . مع أنه جاء فى صلب الكتاب ما نصه :

---

(١) التراتيب ٢/٤٦٩ .
(٢) الأعلام ٤/١٧٥ .
(٣) الأعلام ٧/٨٣ .
(٤) التراتيب ٢/٢٦٧ .

«وأحكام النفائس فى آداب الأذكار بلسان فارس ، لسمينا عبدالحى الكلنوى الهندى»[١] . والعجيب أن الأعلام ترجم لعبدالحى هذا[٢] ولم يترجم للكتانى .

و«فهرس الفهارس» الذى أشار إليه الشيخ الزركلى على أنه من صنع محمد عبدالحى[٣] ، هو من صنعة الشيخ حيث جاء فى التراتيب :

«وقد اهتممتُ فيما قَرُب بجمع أسماء الفهارس والأثبات فبلغت عندى أزيد من الألف فى حين أن كشف الظنون فى أسماء الكتب والفنون لايوجد فيه ولا عُشره»[٤] .

وبحثت عند الزركلى عن عبدالحى الكتانى أو محمد عبدالحى الكتانى[٥] فى الأعلام ومستدركاته فلم أجد لهما ذكرًا فهل المؤلف عبدالحى؟ أم محمد عبدالحى كما جاء فى ختام الكتاب وأحسب أنه هو فلو كان ابن المؤلف لقال محمد بن عبدالحى ، ومادمنا قد أشرنا إلى أنه هو صاحب «فهرس الفهارس» فيجمل بنا أن نشير إلى بعض أعماله ومؤلفاته التي ورد ذكرها بالإضافة إلى :

١ - التراتيب الإدارية الكتاب الأساسى

٢ - فهرس الفهارس[٦] .

٣ - تاريخ القرويين[٧] .

٤ - حول كتاب العواصم لابن العربى[٨] .

٥ - الإلمام بما ورد فى الحمَّام[٩] .

٦ - الأوائل[١٠] .

٧ - رحلتنا الحجازية الشامية[١١] .

---

(١) التراتيب ، المقدمة ، ٣٠ . (٢) الأعلام ٦٢/٤ .

(٣) التراتيب ، التراتيب ، ٣٠ . (٤) التراتيب ٤٥٧/٢

(٥) الكتانى لقب لحق بهم كما ذكر الشيخ قائلا : «وكنت الخزائن (الخباء يقال له فى المغرب خزانة ، فالفسطاط والخباء والخزانة واحد) فى القديم تستعمل من جلد أو صوف أو شعر ـ وأول من عملها من كتان أحد أسلافنا وهو يحيى بن عمران . . . ومن هنا جرى على عائلتنا اللقب بالكتانى» . تراتيب ٣٥٣/١ .

(٦) التراتيب ٤٥٧/٢ .

(٧) التراتيب ، المقدمة ، ٤٤ . (٨) السابق ١٣/١ .

(٩) السابق ٩٥/١ . (٩) السابق ٢٢٦/١ .

(١١) السابق ١٤/٢ .

٨ - اليواقيت الثمينة فى الأحاديث القاضية بظهور سكة الحديد ووصولها إلى المدينة[١] ، ٤ نشر بالجزائر ١٣٢٩

٩ - رسالة فيمن قبَّل يد النبى ﷺ[٢] .

١٠ - مشروع كتاب عن «ابن الطلاع الأندلسى محمد بن فرج مولى ابن الطلاع»[٣] .

وبعد . فلهذا الشيخ المحقق فضلُ التعريف به وبسلفه الشيخ أبى الحسن الخزاعى . وقد أهملت المراجع ذكرهما : سبحان الله!!

دهــرٌ عــلا قــدرُ الوضيــع به وترى الشريفَ يَحطُّه شرفُه
كالبحرِ يرسُبُ فيه لؤلؤه سُفْلاً وتعلــوُ فوقـــــه جِيَفُــه

ابن الرومى

ولما أعيانا تحديد عامى الميلاد والوفاة للشيخ لجأنا إلى هذا التحديد التاريخى العام : من علماء القرن الرابع عشر الهجرى وذلك باستخدام القرائن من مثل تواريخ من هم فى درجة قرابته .

فابن خاله ١٢٧٤ - ١٣٤٥ ، أو أصدقاؤه كعضو المجمع اللغوى حسن حسنى عبدالوهاب ١٣٠٠ - ١٣٨٦ ، ورحلاته ما بين ١٣٢٠ إلى ١٣٤١ .

والإعلان عن كتابه الذى ظهر فى الجريدة كان عام ١٣٤٧

ثم حديثه هو مثل : وضعف الإسلام فى القرن الرابع عشر[٤] .

أو قوله : «فقد قيدتنى الأقدار بعد أن مضى على موته (الخزاعى) نحوًا من ستمائة سنة وأبوالحسن توفى سنة ٧٨٩[٥] مضافا إليها ستمائة عام هذه = ١٣٨٩هـ .

---

(١) التراتيب ٢/٤٦٤ .
(٢) السابق ٢/٢٣٧ .
(٣) السابق ١/٢٥١ .
(٤) التراتيب ، المقدمة ، ٨٠ .
(٥) التراتيب ، المقدمة ، ٨٠ .

ملابسات أحاطت بتأليف الكتاب :

فى التقريظ الذى خُتم به الكتاب نقلا عن جريدة النجاح الغراء التى تصدر بقسنطينه بتاريخ ١٤ جمادى الثانية ١٩٤٧ : «ظهر الكتاب خلال السنوات التى أمست فيها ضجة فى مصر حول كتاب على عبدالرازق ، فكانت حديث الركبان يتطلع الناس إلى نتيجتها من كل جهة وصوب . فجاء كتاب التراتيب الإدارية كالشفاء بعد الألم والأمن بعد الفزع والغنى والفقر»[١] . ، وتوضيح ذلك أنه :

- فى بداية القرن العشرين ظهر كتاب «تحرير المرأة» لقاسم أمين (١٨٦٣ - ١٩٠٨م)
- وفى سنة ١٩٢٥ ظهر كتاب الإسلام وأصول الحكم لعلى عبدالرازق ((١٨٨٨ - ١٩٦٦م)
- وفى سنة ١٩٢٦ ظهر كتاب فى الشعر الجاهلى لطه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٣م)

وهذه الكتب الثلاثة أثرت فى الحياة الفكرية والاجتماعية فى مصر وامتد تأثيرها ومايزال إلى أرجاء متعددة من العالم العربى»[٢] .

ولعبت الأهواء السياسية والتكتلات الحزبية والجرائد المعبرة عنها دورًا خطيرًا كان الانتصار فيه للحزب لا للحق وللهوى السياسى لا للعدل ، وليس من هدف هذه الدراسة أن تدافع أو تؤيد بقدر ما تلقى بعض الضوء على الأهواء السياسية التى أحاطت بالكتاب الثانى وهو ما يدخل فى دراستنا ، فلقد أُلْغيت الخلافة سنة ١٩٢٤ وظهر الكتاب فى العام الثانى مباشرة سنة ١٩٢٥ وكانت المعارك على أشدها ـ وقيل فيما قيل . إن الملك فؤاد كان يُمنّى نفسه بأن يكون هو الخليفة للمسلمين . ولكنَّ بريطانيا ـ وهى المحتلة وصاحبة السيادة ، لم تنشط إلى هذا المنصب . ووعود الإنجليز الكاذبة مشهورة معروفة . وهم لا يريدون إغضاب هذا أو ذاك ، وأراد الملك عقد مؤتمر للخلافة فى القاهرة وتوجس بعض المدعوين من الدول الأخرى أن يكون القصد من مؤتمر القاهرة إنما هو نقل الخلافة من شاطئ البوسفور إلى شاطئ النيل ـ ولذلك انفض المؤتمر بغير قرار .

---

(١) التراتيب ٤٧٩/٢ .

(٢) د . مختار التهامى ، . ثلاث معارك فكرية . دار مأمون للطباعة .

«فى هذا الجو المشحون بالوساوس والهواجس والمطامع والدسائس خرج كتاب الشيخ على عبدالرازق : «الإسلام وأصول الحكم» . ولا يستطيع مؤرخ منصف أن يقول : إنه مقطوع الصلة بالأحداث السياسية التى وقعت فى الحقبة التى ظهر فيها عقب انهيار الخلافة التركية ، فهو مع كونه بحثًا علميًا دقيقًا اجتمع له من رصانة الأسلوب وهدوء نفس كاتبه وبساطة عبارته وخلوها من الحشو ومع تحليه بالاستقامة فى الوصول إلى الهدف بغير تردد أو تذبذب أو خوف ، فهو عمل سياسى فى الدرجة الأولى به من أسلوب «الأحرار الدستوريين» أو «حزب الأمة» صفتان هما : مخاشنة الملك والتوثب عليه والثانية أخذ السياسة البريطانية وغايتها فى الاعتبار[1] .

وأما امتداح الكتاب بأنه بحث علمى فقد تولى تفنيد ما فيه من آراء زائغة جمهرةٌ من العلماء والمتخصصين مثل الشيخ شلتوت والشيخ شاكر والشيخ رشيد رضا ود . صياء الريس وغيرهم ، وكما قلتُ : فليس من هدفى سرد الدفوع ولكنى أشير إلى نقطتين فى الكتاب توضح مدى الغرض الذى لا يلتقى مع البحث العلمى الدقيق إطلاقًا :

(١) «٤٤ آية أربع وأربعون آية ذكرها الشيخ فى كتابه ليدلل بها على أن رسول الله ﷺ لم يكن له شأن بالحكم ولا السياسة»[2] . ولم يذكر آية واحدة تتحدث عن الاحتكام إليه ﷺ أو تنفيذ أمر الله له بالحكم بما أنزل الله مما افتتحنا به هذه الدراسة .

(٢) قوله : «من المؤكد أننا لانجد فيما وصل إلينا من ذلك عن زمن الرسالة شيئا واضحًا يمكننا ـ ونحن مقتنعون ومطمئنون ـ أن نقول : إنه كان نظام الحكومة النبوية»[3] .

مثل هذه الأحكام القطعية لاتتناسب مع البحث العلمى الدقيق ، خاصة وأنه قد عرض لكتاب العالم المحقق المجدد رفاعه الطهطاوى ١٨٠١ - ١٨٧١م : نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز[4] : «لانعرف لأحد من العلماء رأيا صريحًا فى ذلك البحث ولا نجد من تعرض للكلام فيه ـ أن للإسلام دولة سياسية أسسها النبى ﷺ ـ وكلام ابن خلدون ينحو ذلك المنحى . . وقد نقل المرحوم رفاعه بك رافع عن كتاب تخريج الدلالات السمعية ما

---

(١) فتحى رضوان : مشهورون منسيون ص ١٠٧ كتاب اليوم العدد ٢٧ أكتوبر ١٩٧٠ .
(٢) على عبدالرازق : الإسلام وأصول الحكم ١١٢ كتاب الهلال ٥٩٦ أغسطس ٢٠٠٠ .
(٣) السابق ص ٨٥ .
(٤) «نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز» للشيخ رفاعة الطهطاوى» ، خصصه لسيرة الرسول ﷺ ومقومات البناء السياسى والإدارى والقضائى للدولة الإسلامية الأولى ، وهو آخر كتاب ألفه الطهطاوى . انظر : د ، محمد عمارة : رفاعة الطهطاوى رائد التنوير فى العصر الحديث ١٢٢ دار الشروق ط ثانية ١٩٨٨ .

يشبه أن يكون صريحًا فى ذلك الرأى بل الواقع أنه صريح قال ما ملخصه : (بعد أن ذكر كلمة الخزاعى السابقة) إن من لم ترسخ فى المعارف . . واستطرد الشيخ على فقال : «ثم لخص رفاعة بك الكلام فى الوظائف والعمالات البلدية خصوصية وعمومية أهلية داخلية وجهادية التى هى عبارة عن نظام السلطنة الإسلامية وما يتعلق بها من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية على ما كان فى عهد رسول الله ﷺ ، وجمع فى ذلك بين الكلام على خدمة الخاصة به ﷺ وما يضاف إلى الإمامة العظمى من الأعمال الأولية كالوزارة والحجابة وولاية البُدْن والسقاية والكتابة وما يضاف إلى العمالات الفقهية من معلم القرآن ومعلم الكتابة ومعلم الفقه والمفتى وإمام الصلاة والمؤذن ، ثم ذكر التراجمة وكتابة الجيش والعطاء والديوان ، والزمام ، وبين أن للديوان أصلاً فى عهد رسول الله ﷺ ثم ذكر العمالات الخاصة بالأحكام . بالأحكام كالإمارة العامة على النواحى وما يتعلق بالأحكام من إشهاد الشهود وكتابة الشروط والعقود والمواريث والنفقات والقسَّام وناظر البناء وذكر المحتسب والمنادى ومتولى حراسة المدينة والجاسوس لأهل المدنية والسجان ومقيمى الحدود . ثم ذهب يعدد الأعمال الحكومية واحدًا بعد واحد حتى لم يكد يدع شيئا» . فماذا كان تعليق الشيخ على؟

«لاشك فى أن الحكومة النبوية فيها بعضُ ما يشبه أن يكون من مظاهر الحكومة السياسية وآثار السلطنة والملك »[1] .

فهل يتناسب مع البحث العلمى أن يبدأ الشيخ بحكم قاطع أنه لم يجد فيما وصل إليه شيئا واضحًا عن نظام الحكومة النبوية . ثم ينتهى إلى هذه الطرطشة العقلية : «لاشك فى أن الحكومة النبوية فيها بعض ما يشبه . . إلخ .» . وإذا كان الشيخ لم يطمئن أو يقتنع بكتابات الموارى وابن خلدون وابن تيمية والسمهودى والطهطاوى وبعشرات العلماء فى التفسير والحديث والأصول . فبم يطمئن؟»

أترك الحكم للقارئ . .

وقبل أن ألتقى بكتاب «التراتيب» أرد على كلمة الأستاذ الفاضل فتحى رضوان فى مسألة : مخاشنة الملك فؤاد ، ويمكن الاستدلال على هذه البطولة بقول الشيخ : «إن ذلك الذى يُسمى عرشًا لايرتفع إلا على رءوس البشر ولا يستقر إلا فوق أعناقهم وأن ذلك الذى يُسمى ناجًا لاحياة له إلا بما يأخذ من حياة البشر ولا قوة إلا بما يغتال من قوتهم ، ولا

---

(١) الإسلام وأصول الحكم ، ص ٩٠ .

عظمة له ولا كرامة إلا بما يسلب من عظمتهم وكرامتهم كالليل إن طال غال الصبحَ بالقصر وأن بريقه إنما هو بريق السيوف ولهيب الحروب»[١] .

«لذلك كان طبيعيا أن يستحيل الملكُ وحشًا سفاحًا وشيطانا مريدًا إذا ظفرت يداه بمن يحاول الخروج عن طاعته وتفويض كرسبه»[٢] . هذا كلام الشيخ على فى صلب كتابه وهو كما ترى كلام يتفجر ثورة وغضبًا ورفضًا . . كلام ينتهى بصاحبه إلى محاكمة أخرى أشد من محاكمة علماء الأزهر له . ونهاية فى أعماق السجون ، فلماذا لم يحدث هذا؟ . ولو تم لكان وسامًا يتقلده الشيخ عنوان البطولة كما حدث مع العقاد مثلاً حين سجن لمهاجمته أكبر رأس فى البلد والمقصود الملك فؤاد .

الذى حدث هو أن الشيخ بادر بالتوضيح والاعتذار وتقديم فروض الخضوع والولاء إلى جلالة الملك «إذا ورد فى كتابى كلمات العرش أو التاج أو الملوكية فما هى إلا عرش الخلافة وتاج الخلافة ودولة الخلافة»[٣] . وهذا ضربٌ فى الميت ، هى ليست بطولة لأن الخلافة كانت قد ماتت ورثى شوقى هذا الميت وهى الخلافة بقوله :

كُفِّنْتِ فى ليل الزفاف بثوبه ودُفِنْتِ عند تبلج الإصباح
ضجَّت عليكِ مآذن ومنابر وبكت عليكِ ممالك ونواح

فهل هذه بطولة : ثم يقول الشيخ :

«وأين ذلك من عرش مصر وتاجها والذات الملكية فيها . ونحن نعلم أن مصر لم تقم فيها إلى الآن خلافة ولا ظهر فيها تاج الخلفاء» . «إن عرش الملك لا يستقر إلا على أساس العدل الشامل وفوق قواعد الدستور والحرية ، وأما تاج مصر فإنه يستمد حياته على قدر ما يفيض على الأمة من حياة . وقوته على قدر ما يكون للأمة من قوة وعظمة وكرامته على قدر ما للأمة من كرامة . . وملك مصر دستوريا ينصر العلم والعلماء ، ويؤيد فى بلده مبادئ الحرية . . لسنا نحن الذين يتطرق الشك فى إخلاصهم الصحيح للعرش والتاج والذات الملكية ، ولقد كنا يوم أشرق على مصر ذلك التاج الكريم ـ ومازلنا ـ أول المبادرين لبيعته والناهضين لخدمته والظافرين بمظاهر عطفه ورحمته»[٤] .

---

(١) الإسلام وأصول الحكم ، ص ٦١ .
(٢) السابق ٦٦ .
(٣) ثلاثة معارك فكرية ، ص ١١٥ مرجع سابق .
(٤) السابق ، ١١٦ .

فهل هذه مخاشنة للملك أم ألاعيب سياسية لا علاقة لها بالعلم ولا بالعلماء .

أطلت فى توضيح الملابسات التى أحاطت بتأليف التراتيب الإدارية وأنها بعض دوافع الشيخ . «فى زماننا هذا الذى كثر الكلام فيه حول الخلافة وسلطتها»[1] لكنَّ هناك هدفًا آخر غير الاهتمام بهذه الإثارات أو غيرها

- فما هدف الكتاب
- وما صلته بمصنف أبى الحسن الخزاعى .
- وأين عثر على نسخ التخريجات
- والفرق بين كتابه وبين كتاب شيخه
- وانتفادُه له ومصادره التى اعتمدها
- وميلاد العاصمة السياسية الأولى على يد مؤسسها ﷺ
- ثم ملاحظات على سفر الكتانى

هذا ما نواصل الحديث عنه إن شاء الله .

---

(١) التراتيب ، المقدمة ، ٤٢ .